الإسلام فى العصر الحديث

بعد أربعة عشر قرنا من ظهور الإسلام ونزول الوحى، يحس إنسان العصر الحائر، بحاجة قوية إلى الإسلام يتفهمه ويتعمقه، ويطلب عنده الشفاء من داء العصر، وهو الغرور المادى والغرور العلمى.

بعد أن أبدع إنسان العصر الحديث حضارته الآلية، وقطع فيه شوطا بعيدا حتى وصل إلى سطح القمر وشعر كما لم يشعر من قبل بظمأ الروح والمشاعر ... هذا حين طب الإسلام لروحه وجسمه معا، لآخرته ودنياه معا لم يعمل لواحدة على حساب الأخرى، بل أعاد التوازن إلى النفوس القلقة فاستقرت وارتاحت ... وإذ تطمئن النفس تعطى عطاءها كله غير منقوص وغير شائه.

إن مأساة الإنسان المعاصر، مأساة بروميثوس الذى حاول تحدى الآلهة فارتطم بالجبل (جبال القوقاز فى الأسطورة) ..

إن كل نمو للوعى، يدعو اللاوعى للانكماش.

إن النمو فى جانب واحد حتى الأخلاق، يؤدى إلى الانهيار المحتوم.

هنا الطبيب يكتشف ثورة عارمة من اللاشعور ضد الشعور ... وهنا يعجز العقل الإنسانى عن العلاج إلا بحلول زائفة أو مشتبه فيها.

الطريق هو الذى عثر عليه الشرق منذ بداية الأشياء.

الطريق الذى عثر عليه الصينيون حين لم يفصلوا بين المتضادات فى الطبيعة الإنسانية، بحيث لم ينقطع الاتصال الواعى بينها.

ليس هناك أخطر على الإنسان الأوربى من أخذه باليوجا الهندية لأن المسألة عنده، مسألة إرادة ووعى. والأمر أكبر من هذا فتحدث النتيجة نفسها التى أريد تجنبها .. أى تنمية الوعى ضد اللاوعى فيصاب الرجل الأوروبى بالعصاب أى بالاضطراب.

إن التفاعل إذا جاء من داخل الفرد تحول إلى رؤية خارجية .. وإذا جاء من خارج الفرد تحول إلى تجربة ذاتية .. وخير التفاعل ما تدفق من تيار نهر الزمن ..

أما الإسلام فقد منح الإنسان الطمأنينة النفسية .. السلام النفسى (افعل ما يطمئن إليه قلبك وإن أفتوك وأفتوك) محاولة من الرسول الكريم فى بث الطمأنينة والثقة فى نفس المؤمن.

وهذه الطمأنينة النفسية هى التى جعلت، بلالا، يعذبونه أقسى وأقصى العذاب فيقول: أحد .. أحد.

لقد أطمأن إلى عقيدة يهون معها ويهون بعدها كل شئ ..

«قلب المؤمن دليله» .. قالها التراث الإسلامى فى مباشرة وسهولة حين لف «يونج» العالم النفسى الكبير، حولها طويلا .. شقى فى البحث عن دليل.

ان التقوى هى اتقاء نزعات الشر، ونزعات الشيطان .. والشيطان هو الجزء الثائر المحموم المنبوذ فى النفس. والإنسان نفسياً هو الذى أصطلح فى داخله الوعى واللاوعى. والمتكامل شوق الإنسان ولو لم يدر إلى هذا اللقاء الداخلى .. ولهذا وجدت الديانات لتغذى حنين الروح إلى ذلك التكامل.

لهذا وجدت الديانات ولهذا عاشت.

وهنا نتذكر وحدات الفن الإسلامى. لقد مثل الفن الإسلامى، التكامل النفسى بوحداته.

إن كيان الانسان يعج بالمتناقضات .. فيه رحمة وقسوة .. فيه قوة وضعف .. الفن الإسلامى بمتقابلاته يحل هذا التناقض.

قبل التقليد

لكن نطيع قوانين النفس الداخلية كما يقول «يونج» يجب أن نطيع قوانين الأرض أولا.. أن نرضى غرائزنا إرضاء ذكيا وكاملا فى غير ترخص. لقد دعت المسيحية إلى الروح .. ولكن بعد العصور الوسطى حين انحلت الروح إلى ذهن، وسادت العقلانية، كان رد الفعل خطأ اللبس بين الذهن والروح الذى أدى بدوره إلى لوم الروح لأخطاء الذهن...

إن الذى ينمى نفسه فى بعد واحد، يضيع ... وحركات الفن فى حقيقتها ثورة على الاتجاه الواحد فى سعى إلى التكامل عن طريق الأخذ بالطرف الآخر المقابل ... ومن آثار هذا «اللامعقول» فى الفن.

ونأتى نحن لنتظاهر «بالمودرنزم» فنأخذ باللامعقول، مع أننا لم نمر بالمراحل التى أدت إليه والتى عاشها أصحابه وعانوا منها.

هل نتروى قليلا قبل التقليد؟

للصين كتاب عن الحياة ترجمه من الصينية إلى الألمانية، «كلهلم» ونشر فى لندن سنة ٣٥ وترجمه إلى الانجليزية Cary Baynes هذا الكتاب فسره وعلق عليه «يونج». ومن قوله:

الحل ليس فى التهكم من الروحانية الشرقية ووصفها بالعجز.

وليس فى التشكك فى العلم واعتباره هداما للإنسانية.

لابد للروح أن تتكئ على العلم بوصفه مرشدا فى عالم الواقع.

ولابد للعلم أن يتجه إلى الروح للاهتداء إلى معنى الحياة.

وقد حقق الإسلام هذا التوازن فى إحكام دقيق ووثيق.

لقد أقام الإسلام بمبادئه وقوته الذاتية أمة ودولة، يجتمع لهما العلم والدين، مرتين:

ـ مرة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام حين جمعهم ونظمهم ونشأهم على المبادئ الجديدة والقويمة بما صقلهم وهذب بداوتهم وقلّم جاهليتهم وأحال النزوة الغرائزية فى داخل الإنسان البسيط إلى ذروة إنسانية، لا أقول عند الجميع .. ولكن يكفى عند النماذج التى عرفت لنا فى ميدان الحكم مثل أبى بكر وعمر .. والتشريع عند الإمام على ابن أبى طالب، والحرب عند خالد بن الوليد وسعد بن ابى وقاص، وأبى عبيدة بن الجراح ونظرائهم فى الميادين الأخرى.

ـ ومرة بعد وفاة الرسول فلولا الإسلام لارتدوا إلى جاهليتهم التى ولفوها طويلاً – وقد حاول بعضهم بالفعل، الارتداد – ولكن أبا بكر وصاحبه على هدى من الإسلام واهتداء، جمعا شمل الجماعة، وقبضا على ناصية الأمور وشرعا تحولا تاريخيا عاش إلى اليوم عبر القرون والظنون.

ولو أن الدول التى قامت على أكتاف الإسلام واصلت الاستضاءة بروحه، والاسترشاد بهديه، لكان للمسلمين اليوم، شأن آخر.

ولكن ركبها أو معظمها، غرور الفرد، وغريزة التملك، وشهوة إراقة الدماء سفحا من الجسد، أو هدرا من العقل بإكراه المفكرين وكراهيتهم واضطهادهم، كما حدث فى محنة القول بخلق القرآن.

المسلمون .. والسياسيون

لقد اعتدنا أن نركز الفروق بين الغرب والشرق فى الماديات والروحانيات .. ولكننا ننسى أو نتناسى المقارنة بينهما فى نظم الحكم .. فقرآننا يقول بالشورى، ولكن الذى يعمل بهما مسيحيو الغرب لا مسلمو الشرق. فكل حاكم فى الغرب يستمد شرعيته من الكنيسة أو من الديمقراطية أى حكم الشعب واختياره الحر المريد .. حتى لويس الرابع عشر كانت وراءه قوى تكبح جماحه وتوجه سيره، على الرغم من قوله (أنا الدولة) أو الملك الشمس Le Roi Soleil. أما الحكم فى معظم تاريخ الشرق فهو لا يستمد من روح الدين الذى يحترم الإرادة والعقل والشورى ولا يستثنى من هذا الأمويون والعباسيون والعثمانيون والاندلسيون الخ ...

ومع هذا ظلت الأمة الإسلامية أمة فاضلة .. وهى فى ميزان الإسلام والقيم والتحضر، الأحسن والأبقى والأشرف ففى كنفها، ومنها، وبها ... القضاة والعلماء والفقهاء والأخيار.

إن الفقه الإسلامى من صنع الأمة الإسلامية لا السياسيين.

والفن الإسلامى من صنع الأمة الإسلامية لا الحكوميين.

بل إن المجاهدين من صنع الأمة الإسلامية، فالمرابطون فى الثغور على أهبة الجهاد، متطوعون لأن الإسلام فى قلوب الناس يوجه حياتهم وسلوكهم بينما أصحاب الدول يوجههم الحكم والمصلحة.

ولولا قلوب الناس العامرة بالإيمان الصحيح من قوة الإسلام .. ولولا قيام الأمة الإسلامية بالعلم والقضاء والحسبة والصناعة والفن لما عمرت فى التاريخ، الدول طويلاً.

ولسنا فى هذا بدعا ففى كل مكان فى الدنيا، الدول لا تصنع الحضارة ولكن الأمم إذا آمنت واطمأنت فعملت وجودت العمل ثم تفننت وابتكرت وأبدعت .. وهنا يحمد الحاكم العادل المتدين لأنه يوفر للأمة الجو المعين على الازدهار .. خاصة إذا تجاوب معها، وآمن بها، وعف فيها، وربط خيره بخيرها .. أما أولئك الذين حكى التاريخ أنهم اعتمدوا على القوة فهم كراكب الأسد يراه الناس فيوجلون منه، وراكب الأسد أشد وجلا.

إن القوة تفصل نفسيا بين الحاكم والمحكوم فى كل زمان ومكان.

وهنا تصح نظرية (الدائرة الشريرة المقفلة) التى قال بها ابن خلدون وغيره من المفكرين فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى أى بداية الدول ونهايتها الدرامية.

إن التاريخ علم الشعوب لا الملوك خلافاً لما قاله «بوسويه» الذى اعتبر التاريخ علما رفيعا مقصورا على الملوك وأنه خطة إلهية .. ولكنها مقصورة على المسيحيين وحدهم!!

ولكن الإسلام لم يعرف هذه التفرقة بين الإنسان أو الأديان لأنه دين الفطرة ولأن رسوله بعث إلى الناس كافة ".. ولأن الناس عنده سواسية كأسنان المشط .. وهى قيم لم يرق إليها «بوسويه» أو كتابه «مقال عن التاريخ العالمى Discours sur L' Historie Universelle على شهرته.

من الذى سقط ؟

استطاع الإسلام أن يصنع من البادية، أمة ودولة وخلافة وحضارة تهدى إلى الدنيا فخر الحكام وعطر التاريخ عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز وعبد الرحمن الناصر.

إن المسيحية اعتنقتها ممالك كانت قائمة قبلها، وبدونها، واليهودية لم تقم دولة، ودولتها الجديدة لم تكن تقوم لولا مصالح الغرب ومنافسيه فى قيامها ومساندتها.

ولكن الإسلام نشأ محاطا بقوتين دنيويتين ضخمتين .. هما الفرس والروم فغلب عليهما بقوته الذاتية لا بالسلاح، فقد كان سلاحهما يفوق سلاحه مرات نوعا وعددا ولكنه كان الأعمق والأقوى أثرا فى نفوس آمنت به فاسترخصت الفداء لأن الله وعدها الجنة .. وهى أمل يفعل الأعاجيب، وأعلى فى يقينها الشهادة والشهداء فاستبسلت وقاتلت فى سبيل الله وابلت بلاء حسنا.

وتتميز الحضارة الإسلامية بأنها نجت من داء الحضارات وهو الانحلال والاضمحلال لأن أساسها ليس عنصرا بشريا.

إن الذى سقط فى الأندلس دولة العرب لا حضارة الإسلام، فإن هذه باقية إلى اليوم حتى بعدما آل الحكم الى آخرين دينا ودولة.

حضارة الإسلام فى الأندلس باقية تشهد عليها قرطبة وغرناطة وإشبيلية التى تمثل عنصر الجذب فى سياحة إسبانيا إلى يومنا هذا والذى سقط فى دمشق دولة بنى أمية

لا حضارة الإسلام. وفى كل مرة تسقط عاصمة، ترث مكانتها، فى مكان آخر، عاصمة أخرى لأن الاسلام أمة يقوم بدولته فيها، المسلمون بلا تفريق بلا عصبية لجنس أو امتياز لطبقة.

لقد قامت الحضارة العربية والإسلامية بالإسلام.

وتدهورت بالمسلمين عربا وعجما دون الإسلام. فالإسلام قيم ونظم وتشريع وإنسانيات.

والمسلمون خاصة الحكام من أمثال بنى بويه وبنى الأحمر كانوا لا يرقون إلى مستوى الإسلام فبقى الإسلام دينا وانحدر دولة وسياسة بل صناعة وفنا.

ومن شرف المسلمين أن الفساد لم يلحق الإسلام قط بل انحصر فى فئة قليلة استأثرت بالحكم والنفوذ والمال وهى رزايا لا مزايا إن لم يدعمها الخلق حتى لا تسقط، ويعززها الضمير فلا تجور.

والتاريخ الإسلامى يسجل أن الصراع انحصر فى المتنافسين على السلطان .. أما الأمة الإسلامية فقد نفضت يدها من هؤلاء واستعزت بالسلطة الباقية سلطة الدين والعلم، فالتفت حول العلماء والفقهاء وسمت رجل الدين الذى تتمثل فيه خصائصها هى: سلطان العارفين فى رد هادف على سلطان الحكم.

خط سير مختلف

ونظرة مقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى التى سبقتها أو التى تلتها نجد أن المسيحية ولدت فى بيت لحم بفلسطين وكانت تابعة للرومان. وحارب الرومان المسيحية ودافعت مصر عن المسيحية ثم قامت بنشرها حتى وصلت بها شمالا إلى أيرلندا، وجنوبا إلى الحبشة. ومكنت لها بالعلم حين كتبت أشهر ما فى تراثها الفكرى والدينى على يد بوخوميوس وأثناسيوس من الآباء المصريين.

إذاً نشر المسيحية والتمكين لها جاء من خارجها.

ولما اعتنقها الرومان فى النهاية، استقطبتها حضارتهم التى قامت على الغزو والسيطرة فى طبعها العام والتى ورثت من الناحية الفكرية الحضارة اليونانية التى تتلمذت بدورها على الحضارة المصرية القديمة.

المسيح أو عيسى بن مريم عليه السلام لم يكن حوله إلا تلاميذه أو حواريوه هما خاصية الخاصة لا عمومية (الكافة).

وإذا رجعنا قليلا إلى الوراء، نجد اليهود (المكابيين) يعارضون إقبال الناس على اليهودية وهنا بدأ الصراع بين اليهود أنفسهم. فلما بطش (بختنصر) بهم ونفى جماعات منهم إلى أرض بابل وهو ما يعرف «بالاكسودوس» أو الخروج، انكسرت شوكتهم، وبدأ الشتات أو «الدياسبورا» الذى تكرر فى عهد الرومان فلم ينصفهم إلا الاسلام الذى أفسح لهم بتسامحه مكانا فى دولته خاصة فى الأندلس.

أما الحضارة الغربية أى الحضارة الحديثة فهى تنسب أصولها – باستثناء المنصفين منهم إلى الحضارة الإغريقية أى الهلينية وهى كما ذكرت قامت على الحضارة المصرية .. كما أن الحضارة الإسلامية، قامت بترجمة الحضارة الإغريقية. وبهذا وفرت على أوروبا ألف عام على الأقل. ولهذا بعد تفصيل عريض.

ولكن الإسلام خط سيره، مختلف:

وحَّد الإسلام القبائل فى أمة، ثم مهد منذ هجرته إلى المدينة لنظام مجتمع ودولة تبلورت فى خلافة أبى بكر وعمر. ثم صارت هذه الخلافة ملكا فى عهد بنى أمية. ثم صارت إمبراطورية فى عهد عبد الملك بن مروان. ثم صارت للإمبراطورية حضارة إسلامية فى عهد العباسيين.

حضارة إسلامية قام بها المسلمون على اختلاف جنسياتهم تصديقا لقول الرسول الكريم: (بعثت إلى الناس كافة) فى عملية مؤاخاة بين البشر.

فلم تعرف دولة الإسلام النعرة الجنسية.

هذا حين شاع التعصب للجنس إلى حد النعرة فى الأمم القديمة والوسطى والحديثة أيضاً.. وما قول هتلر بتفوق الجنس الآرى ببعيد. وما قول اليهود بشعب الله المختار وسائر الناس، كما يبدو، الشعب المختار، بخاف.

اليونان اعتبروا أنفسهم الأعلى والآخرون برابرة. وقسموا الشعب فى بلادهم إلى سادة وعبيد. واحتقروا العمل اليدوى واستنكفوا منه، واستمرأوا الانغماس فى الفراغ بلهوه وعبثه، فجنت عليهم البطالة، وفى النهاية قضى عليهم المقدينيون الذين كانوا يحتقرونهم بقيادة الإسكندر.

والرومان فى قوانينهم نصوا على أفضلية الرومانى! حتى كان التجنس بالجنسية الرومانية وسيلة للوصول.

والصينيون يقولون من خلال سور الصين المشهور انهم فى غنى عن سواهم أى أنهم الأعلون.

والهنود البراهمة يدلون بأنفسهم.

وحين لم يعتد ابن خلدون فى مقدمته، والمسعودى فى مروجه الذهبية باللون الأبيض، جعلته أوربا، امارة تفوق ومظهر امتياز حتى بلغ الازدهاء بـ «هيوستون ستوارت تشمبرلين» Heuston Stewart Chamberlain، حدا ألف معه كتابه «أسس القرن التاسع عشر Foundations of the Nineteenth ، عزا فيه كل معطيات الإنسان المتحضر إلى الجنس الآرى أو الهندى الجرمانى، وهنا اعتبر المؤلف، المسيح نفسه آريا.

وحين دهمت هجرة الأوروبيين أمريكا نادى مفكروها بقصر الهجرة على السكسونيين والجرمان وأهل شمال أوربا امتدادا لعقيدة أو عقدة تفوق الجنس الآرى. وتزعم هذه الحركة مايسون جرانت ولوثر وباستودارد.

فلم يكسر شوكة هذا الادعاء والازدهاء، إلا العالم المؤرخ توينبى بعد قرون.

ويشهد الإسلام المعركة مستقرا وقريرا فقد حسمها منذ البداية حسما، آضت إليه فى النهاية، أوربا صاحبة نظرية الاستعلاء.

ويرن فى سمع الزمن والناس، رأى الإسلام ورؤيته وآيته (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن اكرمكم عند الله أتقاكم). الحجرات ١٣

أقول للمرة الكم لا أدرى: إن الاسلام من خلال القرآن الكريم صنع ١٤ قرناً بما فيها من اجتماعيات وسياسات، أعاد بناء الإنسان على أرض الجزيرة وما حولها.

كتاب فجَّر كُتبا بل مكتبات، ويتجدد القلب فتتجدد المعانى فيه، وتتمزق الأمة الإسلامية من الفرقة والتشتت والهوى والخطأ والخطايا أحياناً ثم لا تموت لأن هناك شيئاً خفياً وقوياً يربطها فلا تضيع ويمسكها فلا تتهاوى. هذا الرباط الخفى القوى هو القرآن. وقد لا يعرف الناس هذا ولكنه واقعهم وحظهم الكبير.

وهذا الرباط لا يستثنى منه غير المسلمين ممن يعيشون معهم ويلتقون بهم فى جنسية الوطن وعلى أرضه.

هذا هو الإسلام.